الخاتمة

تعد الفترة التاريخية التي عاشتها الأمة الإسلامية منذ مطلع القرن ١٩م وحتى الثلث الأول من القرن العشرين عصيبة للغاية.. وتمحورت في تكتلات دولية ضد النظام العثماني الذي بسط نفوذه على الساحة العربية كلها.. والتزم النظام العثماني بمجاراة التطور الأوروبي من خلال تحقيق إصلاحات إدارية وعسكرية.. وكان على العثمانيين التعايش مع أوروبا، وبالتالي منحت امتيازات تجارية للدول الأوروبية. وكان ذلك بداية التدخل في الشأن العثماني، فنشطت أوروبا على إثارة النزعات العرقية، والطائفية في اليونان، والبوسنة، والهرسك، وغيرها من المناطق الأوروبية التي كانت خاضعة للنفوذ العثماني.. واقتبس العثمانيون من الأوروبيين الفكر القومي، فأعلنوا تعميم التتريك، مما أثار عرب الشام بوجه خاص، وفيهم ولدت فكرة القومية العربية لمناهضة العثمانيين.

ومن نتائج الحرب العالمية الأولى هزيمة الدولة العثمانية، وسلخ العالم العربي كله عنها.. واقتسم الاستعمار الأوروبي العالم العربي وقام بتجزئته إلى أقاليم صغيرة، وأوجد الاستعمار عناصر متعاونة معه من أبناء العرب، وشجعت هذه الحفنة المريضة على الدعوة إلى الإقليمية، ونبذ اللغة العربية التي هي الوعاء الثقافي للفكر الإسلامي.. وقاوم العرب كثيراً المستعمرين باتجاهين "الديني، والقومي".. وقسم الاستعمار البريطاني "فلسطين" إلى قسمين، الأول تكون فيه دولة إسرائيل ومنحها كل ضمانات البقاء والقوة، والقسم الثاني للعرب الفلسطينيين، وتعاون الاستعمار الإمبريالي مع الصهيونية الإسرائيلية على نجاح مشروع دولة إسرائيل في المنطقة، واجهاض قيام دولة فلسطين وشرذمتهم وتفكيك قدراتهم، كانت كل هذه الهموم

كفيلة لمحاولة قيادات فكرية إسلامية لتشكل تياراً إسلامياً لمواجهة الاستعمار العسكري والثقافي.

ومع احتدام الصراع بين العرب والاستعمار حقق "جماعة الإخوان المسلمين" قدراً من النجاح في مصر، وكان لهم دورٌ في معركة العرب ضد اليهود عام ١٩٤٨م، ونتيجة لخيانة الملك فاروق بتوزيعه أسلحة فاسدة للمقاتلين أدى ذلك إلى هزيمة الجيش العربي ومنهم "الإخوان" فاحتدم الصراع بين الإخوان والحكومة.. وتم اغتيال رئيس الحكومة "النقراشي"، وكان رد فعل النظام الحاكم باغتيال "الشيخ حسن البنا".. وفي مرحلة لاحقة تعاون الإخوان مع جماعة الضباط الأحرار للقضاء على الحكم الملكي، وأعلنت الثورة في ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، ومارس الإخوان نشاطهم السياسي في الوقت ذاته تم وقف كل الأنشطة السياسية الحزبية بمصر كلها.. إلا أن الإخوان تعاضدوا مع "محمد نجيب" رئيس الجمهورية ضد عبد الناصر قائد الثورة، وحاولوا اغتيال عبد الناصر بعد الانقلاب الذي تم ضد محمد نجيب عام ١٩٥٤م.. ولم يحققوا شيئاً.. ونجح عبد الناصر بوقف نشاط الإخوان والقضاء على قادة التنظيم.. وكانت محنة السجون كفيلة بانقلاب العديد منهم على المنظومة الإخوانية. وعند خروجهم من السجون في عهد الرئيس السادات أعلنت هذه المجاميع المبتسرة من جماعة الإخوان عن تكوين تنظيمات جديدة منها : "الناجون من النار" و "منظمة الجهاد" أو بما تسمى جماعة التكفير والهجرة، واتخذوا من العنف مبدأ سياسياً ودينياً لمواجهة النظام الحاكم.. وكانت النتيجة اغتيال السادات عام ١٩٨١م عن طريقهم.

ويمكن القول إن "جماعة الإخوان" هم الذين صنعوا لأنفسهم تلك المحنة.. ولم تكن القضية مرتبطة بتطبيق الشريعة الإسلامية في مصر، ولم تعلن "ثورة يوليو" إقامة نظام علماني، ومن المعلوم أن الإجراءات التشريعية سواء في الأحوال الشخصية أو الجنائية قائمة على مفاهيم فقهية.. ومعظم تلك

الأحكام تعود إلى عهد "محمد علي باشا ١٨٠٥ـ ١٨٤٩" مقننة يجرى العمل بها حتى اليوم.

ولعبت إسرائيل دوراً كبيراً في جعل مراكزها الثقافية والبحثية مصدر المعلومات عن الأقطار العربية والعالم الإسلامي المجاور لها.. وعلى سبيل المثال "مركز شيلوح لدراسات الشرق الأوسط وأفريقيا" ـ التابع لجامعة تل أبيب ـ يقوم بإعداد الدراسات والبحوث، وتقدم لأجهزة الأمن الأوروبية والأمريكية. كما تقوم أجهزة الاستخبارات الصهيونية الإسرائيلية والأوروبية والأمريكية على تنشيط وإحياء فكرة هذه الأقليات كالإسماعيلية واليزيدية والعلوية (النصيرية) والدرزية والفرق الصابئة.. وكل ذلك من أجل إسقاط القضايا الشرعية داخل مربع الأحداث النشطة في معظم البلدان العربية والإسلامية.

وكان الاتحاد السوفييتي الذي تزعم معسكر أوروبا الشرقية وحاول إعلامياً أن يقوم بتحقيق الرفاهية للشعب قد انهار ت منظومته الاشتراكية بسبب ضخامة الاستثمارات العسكرية، ولعب السوفييت في أواخر السبعينات دوراً كبيراً في أفغانستان، وبدأ الصراع بين الأمريكيين والروس على أرض أفغانستان، وجندت أمريكا كل إمكانياتها في حلبة الصراع، وفرضت على حلفائها العرب السير في ركابها بدعم عسكري من خلال تجنيد متطوعين من "السعودية، مصر، اليمن، والأردن" لمواجهة الغزو الشيوعي بأفغانستان، وتم تدريبهم على أيدي خبراء أمريكيين.

وهزمت روسيا وانسحب الجيش الروسي من أفغانستان، وظهر فيما بعد الحرب قضية "عرب الأفغان" ودارت الدائرة عليهم من قبل الأمريكان وعملائهم من الحكام العرب، وأصبحوا يشكلون نموذجاً عدوانياً للغرب، وبانسحاب الروس كان البديل تيار إسلامي عرف بجماعة "طالبان" وهم جماعة من الشباب الذين كانوا يتلقون تعليمهم في باكستان.

أما الاتحاد السوفييتي فقد صعد "غوربا تشوف" إلى رئاسة الدولة الروسية، وبدأ العد التنازلي للنظام الشيوعي في أوروبا الشرقية كلها، من خلال مشروعه السياسي المتمثل ببرنامج "البروسترويكا" ـ إعادة البناء ـ في الوقت ذاته فقد كان سقوط الشاه في إيران، ونجاح الثورة الإيرانية انتصاراً للقوى المعارضة لأمريكا، فكما خسرت روسيا أفغانستان، خسرت أمريكا إيران.

بعد نجاح الثورة الإيرانية تفجر موقف حدودي بين إيران والعراق ودارت الحرب رحاها مدة ثماني سنوات.. ثم تلتها الحرب العراقية – الكويتية.. كما فرضت أزمة الخليج تحدياً على جماعة الإخوان المسلمين، وتعين عليهم اتخاذ موقف من الأزمة باعتبارهم أكبر التشكيلات السياسية العربية في موقع المعارضة.

ومع اندلاع الحرب انكسر التحالف بين إخوان مصر وجماعة إخوان الخليج .. وفي ظل هذا إلخضم العسكري أقرت هيئة كبار العلماء الإسلاميين في السعودية شرعية قدوم القوات المتعددة الجنسية من ثم تم ضرب العراق وتدميره وإسقاط النظام.

وبرزت إلى الساحة موجة من مفهوم فكري يقوم على تفوق العقل الأوروبي من خلال مؤسسات أكاديمية تبنتها المخابرات الأمريكية في العالم العربي والإسلامي.

وكان على التيار الإسلامي تبني مسألة الدفاع عن الإسلام بأنه صورة ممكنة، ولو أدى ذلك إلى تبني سياسة العنف ضد الأجانب الأوروبيين، أو من يقوم بترويج للفكر الغربي من المسلمين. ويمكن القول إن الاختلاف أوجد أرضية ثقافية متباينة وحراكاً سياسياً نشيطاً انعكس أثره على الواقع الاجتماعي، وفي ظل الظروف المحيطة بمجتمعنا التي تحكمها أهواء سياسية منها منفتحة وأخرى منغلقة.. لذلك نجح المد الاستعماري الثقافي أن يصل إلى

عقولنا ويقنع حكامنا بأن مصلحتهم في بقائهم في الحكم هو التعاون معه في تزيين الفكر الاستعماري داخل شعوبهم.. ويعمل الاستعمار الفكري في المنطقة على استقطاب أنصار له من خلال مراكز ثقافية وجامعات أجنبية، ووكالات تنموية دولية، والتي أدارتها شركات متعددة الجنسية لكبح الثقافة الوطنية في بلادنا والتركيز على قيم استهلاكية.

هذه الظاهرة الثقافية الوافدة هي التي دفعت بالتيار الإسلامي إلى رفض كل شيء وافد، إلا أنه في الفترة الأخيرة ولد تيار إسلامي يعمل على المعادلة بقبول جزء ورفض الجزء الآخر، وبدأت الضرورة المرحلية البحث عن مخرج من الراديكالية الرافضة والمتفسخة القابلة لكل شيء، فكان الحوار مع الأنظمة ثم الحوار الإسلامي الإسلامي، وكان الهدف منه إقناع الراديكاليين فقط، ولم يكن الهدف منه إلخروج نحو رؤية مستقبلية يحتكم لها الجميع.

وكانت الديمقراطية إحدى المفاهيم الوافدة من الغرب والمطلوب قبولها كما هي.. فخضع هذا المفهوم لجدل شديد بين زعماء الجماعات الإسلامية، وكان البديل لدى الإسلاميين العمل على تطبيق مبدأ الشورى الإسلامي باعتباره النظام الذي تم في عهد الرسول صلى لله عليه وسلم وأصحابه أبي بكر وعمر وعلي.

من هذا المنطلق يمكن النظر للرؤية الفكرية الإسلامية التي تعصرنت مع الواقع السياسي وفقاً لمنظور تقليدي.. فالحراك السياسي الإسلامي في اليمن أخذ بالرؤى الفكرية لتوجيه الإخوان المسلمين بمصر مع الأخذ في الاعتبار بالرؤى السلفية الوهابية في قضايا مواجهة البدع والحركة الصوفية.. وفي الجزيرة العربية عموماً بما في ذلك دول الخليج العربي.. فالأساس الفكري الوهابي يعد مرجعية كل القوى المتعددة والمتعارضة ببعض التفاصيل والاتفاق على توجه سياسي مغلق دينياً بتكفير الاتجاهات الشيعية

بكل طوائفها المتعددة، ويميل إليهم جماعة الإخوان المسلمين لسبب سياسي أيضاً، حيث ساءت علاقة الإخوان "بالإمام الخميني" لرفض الأخير اللقاء مع وفد الإخوان، والذين كانوا يرون أنهم قادرون على احتوائه، وهو منطق غريب إيديولوجياً.

أما التوجه الفكري الإسلامي في شمال أفريقيا فقد تباين بين فرقاء التوجهات الإسلامية، ففي تونس يعتبر المفكر الإسلامي راشد الغنوشي شبيهاً بالمفكر السوداني حسن الترابي، وتختلف عباس مدني بالجزائر، والذي يعد أكثر اعتدالاً من زميله علي بلحاج، وقد يكون للتوجه الفكري الإخواني له بصماته في الجزائر والمغرب، كما هو الشأن في بلاد الشام...

ومما سبق يمكن بلورة الإحياء الفكري الإسلامي وفقاً للمعطيات التقييمية التي خضع لها برنامج المشروع الإسلامي السياسي، فالمنظور التاريخي لهذا الفكر يقوم على مبدأ الاتصال والتواصل، لأن التاريخ سلسلة متصلة من الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل.. فالمشروع الإسلامي لا يكون إلا مستقبلياً. لأنه يقوم على التواصل الاجتهادي الفقهي عبر الزمن واختلاف المكان بما في ذلك الحضارات والثقافات المتنوعة.

والسؤال المطروح في إطار مربع الأحداث في الساحة العربية هو، هل تجديد الفكر الثقافي أمر ضروري وفقاً للمعطيات الأيديولوجية؟.. يمكن القول إن التجديد هو تجاوز الذات، تجاوز الماضي بمعنى إلخروج على التكرار.

فالفكر الإسلامي لم يعش داخل سور متميز، فقد فرض ذاته داخل مجتمعات غير متجانسة ثقافياً وقومياً، فالتجديد يجب أن يكون من الداخل كالحضارة الغربية التي أصبحت حضارة عالمية تفرض تجربتها الديمقراطية وتفرض علينا فتح أسواقنا لمنتجاتها وثقافتها، الأمر الذي يحول العالم العربي

والإسلامي إلى تابع أسير انبهاره بقيم تكنولوجيا الغرب المتقدمة.. وأصبح ما يملى علينا نقبله بعلاته.

وإذا كان للهوية الإسلامية دور فهو تعبير عن معطيات تاريخية، وقاعدة يمكن أن تستخدمها الأقليات الأثنية والدينية، وتتشكل من خلالها جماعات منفصلة عن الآخرين، وبذلك ينعدم الحوار ويتراجع المشروع السياسي للهوية، ويحل مكانه التاريخ الماضوي مكان الرؤية المستقبلية، وتطغى على السطح المرجعية الأصولية بمعنى طغيان الماضي على المستقبل، فإذا انعدمت الرؤية الموحدة لطبيعة أمة موحدة يصبح المشروع السياسي الإسلامي للأمة مشروعاً فاشلاً.

فالأمة العربية جوهر قضيتها اليوم فلسطين، وموضوع فلسطين أصبح بديلاً عن المشروع الإسلامي السياسي الوحدوي.. فقد كانت الوحدة العربية قضية أساسية من أجل مواجهة إسرائيل التي تغتصب أرض فلسطين، كان ذلك في نظر الاتجاه القومي.. وبتمزق وتفتت وحدة الاتصال والتقارب بين العرب.. كان البديل المفترض هو الاتجاه الإسلامي الذي سيعمل على جمع شمل الأمة العربية بوحدة عربية، إلا أن المشروع الإسلامي أصبح أممياً يدعو إلى إقامة وحدة إسلامية دون معطيات مرجعية حتى ولو تنظيرية للكيفية الدعوية.. وقاموا بهجوم عنيف على من يدعو للوحدة العربية من منظور قومي، واعتبروا ذلك خروجاً عن الإسلام ومبادئه.. وبالتالي فقد ساهمت تلك الأفكار بتمزيق الأمة العربية.

ونستخلص من المشروع الإسلامي كمنظور تاريخي أنه حاول أن يعالج القضايا المعاصرة وفق منظور ماضوي وغض الطرف عن ما يقتضيه الواقع.. والإسلام القرآني الذي نظر إلى الدفاع عن الذات والكينونة بمنظار يتواءم مع الواقع والمستقبل.. يقول تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ

إلخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾(الأنفال: من الآية٦٠).. ومعنى الإعداد الشامل بما في ذلك المواجهة العلمية بالعلم وهو القوة المحركة لسيرورة الإنسان نحو التقدم والرقي والاستعلاء.. فالمجتمع الغربي قادته الضرورة عندما كان مستضعفاً إلى اللجوء لأن يبحث عن ذاته وتاريخه، فعمل على استنهاض معطياته الذهنية والإدارية فحقق نجاحاً إنتاجياً وحضارياً.

ونتيجة للحقد التاريخي بين الشرق الإسلامي والغرب الأوروبي، فقد اجتهد الغرب كثيراً على استدراج الشرق إلى الانزلاق في هاوية التخلف، وهي معركة وصراع حضاري نجح الغرب كثيراً باختراق الشرق الإسلامي بعناصر منها وإليها، عبر السنوات الممتدة من القرن ١٥م وحتى اليوم، عندما برز "الشيخ أسامة بن لادن" متقلداً وشاح الدور القومي الإسلامي، ونشط في إقامة مشروعه السياسي والمتمثل بمنظمة القاعدة، والتي أقضت مضاجع الغرب.. وقد تجمع حوله كل المحبطين والمطاردين من دولهم واصبحوا يعملون بإتجاه واحد، تمثل بمواجهة الاستعمار الغربي وإخراجه، وكذا إلخلاص من الإحتلال الصهيوني الإسرائيلي.. ورفض التشريعات الوافدة إلى العالم الإسلامي.. وإذا كان مشروع "ابن لادن" يختلف حوله أصحاب الاتجاهات الإسلامية المهادنة، إلا أن مشروعه قابل للتعديل والتغيير إذا انتهى ابن لادن ورفاقه.. لكنه يبقى مشروعاً سياسياً إسلامياً يخضع لحوار الأتباع.. وقد يتبلور إلى مشروع سياسي أيديولوجي يعمل على إحياء تطبيق الشريعة الإسلامية، وإحياء حركية العلوم الإسلامية وعصرنتها وفقاً للواقع السياسي الراهن...

والله ولي التوفيق